القراءة و المقروئية عند عبد الرحمن بن خلدون

د/ محصر وردة
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة تلمسان

القراءة هي السبيل الأول للمعرفة ' و الإنسان بطبيعته محبّ للفهم و التّفسير' و إدراك ما يحيط به من قوانين تحكم الكون من حوله' و بالقراءة يدرك الإنسان مدى ترابط العلاقة بين الوجود' و بينه و بين الذات والآخر' فليس هنالك معرفة بشريّة مطلقة لا يمكن تجاوزها' بل إن الإنسان في اكتشاف دائمو اكتساب مستمرّ' و قراءة التراث هي قراءة استيعاب و تجاوز.

و للقراءة حظّ وافر في معاجم اللغة العربية' فقد عرّفها ابن فارس في مقاييسه "مادة ق. ر. أ. تدور في لسان العرب حول معنى الجمع و الاجتماع " (1). و إذا بحثنا في صيغة اللفظة ألفيناها مصدرا من قول العرب " قرأت الشيء إذا جمعته و ضممته بعضه إلى بعض ومعنى قرأت القرآن بناء على هذا ' أي لفظتُ به مجموعا " (2). و المعنى ذاته ذهب إليه الجوهري "القراءات جمع قراءة وهي مصدر قرأ و هي الجمع والضمُ "(3).

إذا كان التّفكير و النّظر في مظاهر الوجود و أسراره يقرّب العقل من المعرفة ' فإنّ إدراك الحقيقة لا يمكن أن يحصل بغير العلم و التعلّم' فتكون القراءة منبع كلّ المكاسب لتحقيق العمران و المعارف.

فقد كان ابن خلدون يرى أنّ الإنسان بطبعه مجبول على الرّغبة في تحصيل ما ليس عنده من معرفة وإدراك ' و أنّ التّعليم طبيعيّ في العمران البشريّ' فيستعين بمن سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة' و هو حريص على الأخذ و الاكتساب و"إنّ ذكره و نظره يتوجّه إلى واحد من الحقائق و ينظر ما يعرض له لذاته (...) و يتمرّن على ذلك حتى يصير إلحاق العوارض بتلك الحقيقة ملكة له "(4).

فقد نظر ابن خلدون إلى اكتساب المعرفة من زاوية عمله الاجتماعي' فهو " أفعولة اجتماعيّة " ' و"أنّ التعليم يتأثّر بأحوال المجتمع إلى حدّ كبير و أنّه يتقدم و يتأخّر مع تقدّم المجتمع و تأخّره "(5).

فإذا صارت المعرفة ملكة ' استطاع الإنسان الاتصال بعناصر الكون كلّه مدركا للمفاهيم والقوانين التي تحكم العالم من حوله ' ولا تحصل المعرفة بغير القراءة ' فهي تفتح أمامه الآفاق وتساعده في تجليّة الأنظمة المنهجيّة التي تموقع الإنسان في عالمه ' وتفسّر له كلّ ما يقرأ ' " فالقضيّة الأساسية التي يطرحها كلّ خطاب كيفما كانت طبيعته 'هي قضيّة قراءته ' إن أهم الأسئلة المتعلقة بنص ما' تدور حوله طبيعته و علاقته بمؤلفه و مفسره "(6). فالتسخير الحقّ لقدرة القراءة ' يجعل الإنسان يحلّق بجناح الفكر و يتغلّب على أعضل المشكلات وأصعبها ' " فيكون حينئذ علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علما مخصوصا ' وتتشوّق نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك فيفزعون إلى أهل المعرفة و يجيء التعليم من هذا "(7).

و التعليم في نظر ابن خلدون ' لا يمكن أن يتمّ بغير العلم بقواعده ' و معرفة مسائله واستقراء فروعه من أصوله ' مُقرّا أنّ التعليم صنعة من صنائع العقل البشري و هو أمر يماثل الصناعات الأخرى في الآداب و التقاليد ' " والحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش و المسكن (...) و أمور الدّين و الدنيا وكذا سائر أعمالهم عاداتهم و معاملاتهم و جميع تصرفاتهم "(8). فيرى أنّ العلوم إنّما

تزدهر حيث يكثر العمران و تعظم الحضارة ' فإذا بلغ العلم درجة سامية كان أثره طيبا في النفس "إنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع و التعليم فإنّ لها آثارا ترجع إلى النفس "(9).

و الزعم أنّ الخط أو الكتابة ثم القراءة' هي أصول التعليم لا يجانب الخطأ ' حيث أنّ الكتابة من أخص خصائص الإنسان التي تميزه عن المخلوقات الأخرى ' و الخط في تعريف ابن خلدون ' " هو رسوم و أشكال حرفية تدلّ على الكلمات المسموعة الدالّة على ما في النفس " (10). فالكتابة هي المقروء من العلوم والمعارف ' و هي شديدة الارتباط بحضارة المجتمع ' و بجودة الخط يسمو شأن العمران البشري و يزدهر ' فإنّ البدو الضاربين في البداوة و التخلّف كانوا أُميين " لا يكتبون و لا يقرؤون ' و من قرأ منهم و كتب فيكون خطّه قاصرا و قراءته غير نافذة "(11). على حد قوله.

و إذا سلّمنا أنّ البشر بطبيعتهم ميّالون إلى العلم و التعليم و حبّ القراءة كما يؤخذ من قول ابن خلدون " فقد تبيّن بذلك أنّ العلم و التعليم طبيعي في البشر " (12) .

و ارتقاء النفس و سموّها و خروجها من الطبع إلى الثقافة و الإبداع إنما يكون مخالطة الكتب و الدّواوين و بتجدّد العلوم و الادراكات و تحصيل الآداب.

و قد يذهب ابن خلدون إلى أنّ الكتابة هي أكثر الصنائع إفادة " و بيانه أنّ في الكتابة انتقالا من الحروف الخطية إلى المعاني التي في النفس (...) فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة إلى المدلولات"(13). و مفاد ذلك أنّ كل المعارف تنتقل من الأشكال المرسومة إلى المفاهيم النظرية بالقراءة و النظر العقلي.

و ما اهتممنا بشأن الخط و الكتابة عند ابن خلدون إلاّ وقوفا منا على العلاقة الكائنة بين الخط أو بين الكتابة و القراءة التي قسمها إلى مراحل مختلفة باختلاف القارئ و المقروء' و تعددت القراءات:بتعدد مجالاتها و موضوعاتها' و قد صنّف عملية القراءة إلى ثلاث مراحل أنها إلاّ تكون القراءة الأولى سطحية مرور الكرام ' و هي قراءة و إن بدت قليلة الاهتمام بالمقروء' تعد الغاية في

تحريك حافز القراءة لدى القارئ ' و كأنها تشير عليه بتناول كتاب بعينه ' و ممارسة فعل القراءة ' أما ما تعلّق بالفائدة و النتيجة التي يخرج بها القارئ فلا ترجع لكيفية القراءة فحسب ' بل إنّها تتعلق بالقارئ ذاته و بالمقروء أيضا.

ـ أما المرحلة الثانية في نظر ابن خلدون' هي قراءة ما بين السطور و تحت الكلمات' و هي قراءة يختص بها أهل النظر و التفكير العقلي من المتعلمين الذين خالطوا الكتب و عكفوا على تحصيل الملكة منها.

ـ أما القراءة في المرحلة الثالثة ' فيختصّ بها العلماء و خاصة الخاصة من صفوة المفكرين و الفقهاء وغيرهم من ذوي الحكمة و النظر ' فلا يدع القارئ مغلقا إلاّ فتحه ولا عويصا إلاّ فكّ مغاليقه ' ولا مبهما إلاّ و عرف كنهه و كشف عن سره.

و القراءة في هذه المرحلة المتأخرة منسوبة للقارئ ' و تتحدد فائدة القراءة و قيمتها حسب المقروء ' لأنّ اكتساب اللغة مثلا لا يكون بتعلّم قوانينها و قواعد إعرابها فحسب' و إنّما يكون التحصيل بالقراءة من تراثها الثقافي.

و يدرج ابن خلدون هذا المفهوم في أنّ " العلم بقوانين الإعراب إنّما هو علم بكيفية العمل ' وليسهو نفس العمل " (14). ويذكر كتاب سيبويه الذي لم يحتو على قواعد الإعراب و قوانينه فحسب ' بل إنّه ملأ كتابه من أمثال العرب 'و شواهد أشعارهم' فكانت مادّته تراثا نفيسا لتعليم اللغة واكتساب روحها.

و يصنّف ابن خلدون القارئ عامة و العاكف على كتاب سيبويه بوجه خاصّ صنفين متباينين' أمّا الصنف الأول فهو القارئ الذي يخالط الكتاب عاكفا على دراسة قواعد النحو و قوانين الإعراب ' و أمّا الصنف الثاني ' فهو القارئ على إدراك علم النحو و اللغة حافظا لما جاء فيه من تراث منظوم ومنثور مشيرا إلى أنّ القراءة الثانية التي ترسّخ رصيدا معرفيا زاخرا بالمفردات و التراكيب و الأشعار هي

الأنفع والأبلغ و " العاكف عليه (كتاب سيبويه) المحصل له قد حصّل على حظ من كلام العرب واندرج في محفوظة في أماكنه و مفاصل حاجاته ' تنبه به لشأن الملكة فاستوفى تعليمها"(15).

أما القراءة الأولى ' و إن كانت لطلب معرفة بعينها أو علم خاص فإنّ صاحبها لا يحصل على روح اللغة و ملكتها ' و الفرق كبير بين القراءتين.

و يحسن بنا أن نشير إلى اهتمام ابن خلدون بكيفية القراءة إلى جانب اهتمامه بأنواعها ' فقد تكلّم عن الكتب التي كانت مفروضة على المتعلمين ' وينتقد منهجية القراءة فيها " بأن كثرة التأليف في العلوم عائقة على التحصيل "(16). غير انه اكتفى بالإشارة إلى كمية المقروء دون النظر في بدائل علمية تصحح منهجية القراءة في عصره و يعلل" بأنّ العرف السائد في منهجية التعليم و القراءة كان يفرض على الطلاب قراءة و حفظ جميع تلك المؤلفات واحد بعد الآخر" (17).

ويقرّبنا ابن خلدون من مفهوم القراءة و وظيفتها و تكوين روح الثقافة و تأسيس قاعدة الإبداع عندما يتحدث عن الفرق بين تحصيل العلم بعمل اللغة و بين تحصيل اللغة ذاتها ' فالذي يكون عالما بالنظام العلمي للغة إعرابا و بلاغة و بيانا ' و لا يستطيع أن يعبّر في أسطر قليلة عن مظلمة وقع فيهاأو موقف عاشه فينعتهم ابن خلدون بجهابذة النحاة أو بمهرة صناعة العربية المحيطين بها ' في حين أنهلا يمكننا حصر الذين يمتلكون القدرة على التعبير و الوصف و الكتابة في مختلف فنون الإبداع ' وهم يعرفون أبسط قواعد الإعراب.

و يفهم من هذا كلّه أنّ تنظير ابن خلدون للقراءة و المقروئية كان إدراكا لوظيفة القراءة بأصنافها المتباينة و مكوّناتها المحسوسة و هي مسألة متوقفة على العقل أولا ' و الوجود ثانيا ' ثمّ التشخص ثالثا باعتبار ان الإنسان يشترك بالضرورة مع عناصر الخلق المعروفة اشتراكا تكامليّا وتفاعليّا ' فتنتقل القراءة من الممكن إلى الواجب ' و الأمر بالقراءة في عقيدتنا ' هو أمر في حقيقته بالبحث العقلاني' باعتبارها تفعيلا لحركة العقل' و دينامية نشاطه الفعلي و الإنشائي و من ثمّة الإبداعي.

هذه مفاهيم خلدونية حاولت استنباطها من مقدمته الشهيرة و هو الذي كان يرى أن تحصيل العلوم لا يمكن أن تتم إلا بمعرفة مقدماتها' فهي بمثابة المفاتيح لعلوم أخرى.

إنّ ابن خلدون سيظلّ صاحب اجتماع العمران و صاحب فلسفة التاريخ الإنساني ' وصاحب تصنيف العلوم و المعارف.

الهوامش :

1. ابن فارس (أحمد) مقاييس اللغة ' تحقيق عبد السلام هارون (ق.ر.أ) لبنان بيروت 'دار الفكر' 1979ح ص97.
2. ابن منظور لسان العرب ' (ق. ر. أ.) لبنان بيروت ' دار لسان العرب ' ج 1 ' ص128 .
3. الجوهري (ق. ر.أ.)
4. عبد الرحمن بن خلدون ' المقدّمة ' مطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم ' دون طبعة دون ت ص 307.
5. حسن الساعاتي ' علم الاجتماع الخلدوني ص 27.
6. نصر حامد أبو زيد ' إشكاليات القراءة وآليات التأويل ' المركز الثقافي الغربي ' ط 8. 2008 ' ص 13.
7. عبد الرحمن بن خلدون ' المقدمة ' ص 307.
8. " " " " " ص 309.
9. " " " " " ص 309.
10. " " " " " ص298.
11. " " " " " " "
12. " " " " " ص 307 .
13. " " " " " ص 306.
14. " " " " " ص 420.
15. " " " " " ص 420.
16. " " " " " ص399.
17. الحصري ساطع ' دراسات عن مقدمات ابن خلدون ' ط 3 عالم الكتب القاهرة 1972ص 422.